خطب المحافل في العصر الأموي

دراسة تحليلية

م.د نادية سالم عيسى الحساني

كلية الاداب /جامعة القادسية

nadias.salim.esia@qu.edu.iq

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٤/١٢/١٧

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٤/١٢/٣١

الخلاصة :

يُعرَّف الجنس الأدبي بأنه أَحد القوالب التي تصب فيها الآثار الأدبية وهي تلك الأنواع والفنون المستحدثة من قبل الأدباء ، صوروا ما جاءت به قرائحهم من جمالٍ للمعاني ومحاسن للأَلفاظ، والخطابة واحدة منها بوصفها فن من الفنون الأَدبية التي عرفها الإنسان منذ عهوده المبكرة، فهي ذات التأثير الهادف في نفوسِ السامعين مع إقناعهم ببراعة منطقه وبيان كلماته.

لذا أصبحت خير وسيلة لإقناع المستمع في أمرٍ معين، وأصبح من المفترض على الخطيب في خطبه أن يحسن إختيار الإسلوب بحسب جمهوره مع تنوع الأَساليب التابعة من ثقافة ذلك الخطيب.

الكلمات المفتاحية : المحافل ، النثرالفني ، العصر الأموي، الدراسة التحليلية .

Speeches at forums in the Umayyad era

Analytical study

M.D. Nadia Salem Issa Al-Hassani

College of Arts/University of Al-Qadisiyah

nadias.salim.esia@qu.edu.iq

Date received: 17/12/2024
Acceptance date: : 31/12/2024

Abstract:

The literary genre is defined as one of the molds which literary works are poured, which are the types and arts created by writers, who portrayed what their readers brought of beauty of meanings and beauties of words, and rhetoric is one of them. As one of the literary arts that man has known since his early eras, it has a purposeful impact on the souls of listeners while convincing them of the brilliance of his logic and the clarity of his words.

Therefore, it has become the best way to convince the listener. In a specific matter, and it has become assumed that the orator in his sermons should choose the style well according to his audience with the diversity of styles following from the culture of that orator

Keywords: Public-almahafil-famiya prase-umayyed era-the stude.

المقدمة :

كانت الخطابة وما زالت ميداناً رحباً للدارسين والباحثين الذين وجدوا فيها خير وسيلة للتعبير عن أفكار العرب وأهدافهم فعكفوا على دراستها ويمعنون النظر بموضوعاتها المختلفة وأَساليبها المتنوعة.

وفي العصر الأموي انتشرت الخطابة، بشكلٍ واسعٍ وازدهرت ازدهاراً ملحوظاً للحاجة الملحة لها في مجالات الحياة المختلفة وكانت خطب المحافل أكثر إحتكاكاً بحياة العرب قديماً وحديثاً ، فهي بالأَعم الأَغلب تُعبِّر عن ظواهر إجتماعية استعملها العرب في مناسباتهم المختلفة في محافل التكريم أو التأبين أو تهنئة خاصة كانت أم عامة وحتى في معالجة مشاكلهم الإجتماعية ، لذا كان لا بُدَّ لهذا النوع من الخطابة دراسة توضح مفهومها العام وأهم بواعث ازدهارها مع بيان أشهر التقاليد الفنية لها.

وعليه فقد قُسمت الدراسة على ثلاثة مباحث ، كان المبحث الأول بعنوان :الخطابة المفهوم والنشأة استعرضتُ فيه أهم آراء القدماء والمحدثين لمفهوم الخطابة ونشأتها عبر العصور المختلفة .

أما المبحث الثاني فكان بعنوان : بواعث الإزدهار ، حيث استعرضت فيه أهم بواعث ازدهار خطب المحافل في العصر الأموي .

والمبحث الثالث ذكرت فيه أهم التقاليد الفنية للخطابة الحفلية بوصف لخطب عصر الدراسة ألوان عدة وتقاليد عامة وخاصة استعرضتُ بعضاً منها .

ثم خاتمة بأهم نتائج البحث

الفصل الأول تعريف بالبحث

المبحث الأول:

الخطابة (المفهوم والنشأة)

قبل البدء بالحديث عن مفهوم الخطابة ونشأتها عند العرب نقف وقفة بسيطة على مفهوم الخطاب بوصفه مصطلحاً إذ يُطلق معناه الأَساس على الكلام الذي تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً إلا أن الاستعمال الاصطلاحي تجاوز ذلك إلى مدلولٍ آخر أكثر تحديداً ليتصل بما لاحظه الفيلسوف (هـ . ب

غرايس) عام (١٩٧٥م) من أن للكلام دلالات ملفوظة يدركها كل من المتحدث والسامع من دون وجود علامة معلنة أو واضحة كما في قول شخص لشخصٍ آخر (أَلا تزورني ؟) فلا يفهم السامع من الجملة أَنها سؤال على الرغمِ من أن ذلك هو شكلها النحوي وإنما يفهم إنها دعوة للزيارة (١) ، لذا فالدلالة الملفوظة أكثر تأثيراً عند السامع المستقبل الكلام من المتحدث .

ويُعد الخِطاب مراجعة للكلام بوصف (كل كلام بينك وبين آخر) (٢) هو خطاب،لذا فالله سبحانه خاطب العرب بطريقة مخاطبة بعضهم البعض ، وهذا ما أكده الطبري (ت: ٣١٠هـ) إن (الله جلَّ ثناؤه خاطب بكتابه عرباً فسلك في خطابه إِياهم وبيانه لهم مسالك خطاب بعضهم بعضاً وبيانهم المستعمل بينهم ... .،خاطبهم بالذي هو منطقهم من الكتاب) (٣).

والذي يمعن النظر في كتابات اللغويين لا يعدم إشارات تُؤكد وضوح رؤيتهم لمفهوم الخطاب من ذلك ما قاله العلماء أن لعلم العرب أصلاً وفرعاً، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات ... وأما الأَصل فالقول على موضوعِ اللغة وأَوليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطباتهم وما لها من الإقتنان بالتحقيق والمجاز، والناس في ذلك رجلان: رجل شُغِلَ بالفرع فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معاً ، وهذه هي الرتبة العُليا، لأن بها يُعلم خطاب القرآن الكريم والسُّنة المباركة. (٤)

وفي قول للكفوي (ت: ١٠٩٤ ه) صاحب كتاب (الكُليات) ذكر فيه أن الخطاب هو ((الكلام الذي يُقصد به الإفهام))(٥) ، أو هو ((اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُهيأ لفهمه))(٦) ، لذا فالمُخاطَب في مقام التفهم لا يلزم أن يكون موجوداً حاضراً ليتسع كلام المُخاطِب بل يعم لغيره أيضاً.

ويوصف الخطاب بأنه كل قول يُراد منه ايصال الفهم لشيءٍ ما ، لذا فإن الترابط بين المعنى اللغوي للخطاب والمعنى الإصطلاحي ترابط وثيق أدى إلى استعماله بشكلٍ واسع في الكتاباتِ المختلفة بوصف الخطاب هو اللفظ المراد به إفهام المُخاطَب بشرط أن يُحقق التهيّؤ لسماعه ومن ثم فهمه والعمل به.

والخطاب بشكلٍ عام إما مباشر أو غير مباشر، المباشر يمتلك إحالات بسيطة على الشيء وهذا النوع يتعارض مع غير المباشر بوصفه يفرض نفسه بما يمتلك من قدرات تكاد ترتبط بالحدس بوصفه يعمل على توليد مستويات لا نهاية لها من التأويلات.

أما أركان الخطاب فهي: المُخاطِب وهو المتكلم، والمُخاطَب وهو المتلقي للكلام، وأدوات الخطاب (وسائله) ومضمون الخطاب هو الحكم الذي جاء به ذلك الخطاب.

وقد ورد مصطلح (الخطاب) في القرآن الكريم في قوله تعالى: (إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)[ص: ٢٣] ، إذا غلبني في ذلك الخطاب ، بمعنى آخر إذا تكلم كان أفصح مني (٧).

والخطاب القرآني هو خطاب الله سبحانه الموجه للمكلفين طلباً ونهياً وترغيباً وترهيباً ووعيداً واعتباراً وإنذاراً" ونحو ذلك.

الخطابة (مفهومها ونشأتها): -الخطابة بوصفها اسماً تُطلق على الكلام الصادر من الخطيب، وهذا الاسم يُنطق بضم حرف (الخاء) فيقال خطب على المنبر خُطبة (٨)، والخطيب الذي اشتُقت منه الخطابة هو الأمر الجليل بوصفها تُقال بالأمور الجليلة قال ابن سينا: الخطابة قوة تتكلَّف الإقناع الممكن في كل واحدة من الأمور المفردة(٩)، فيقال: ((خطب الخطيب خطبة حسنة)) (١٠)إذا أجاد فيها .

والخطابة ((قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة ، من شخصٍ معتقد فيه ، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء الوعاظ))(١١).

وتُعد الخطابة فن للتعبير عن الأشياء، إذ أن السامع يُصغي إلى ما يقوله المتكلم (الخطيب) في موقفٍ رسمي يختلف عن ما هو مألوف في باقي المجالس، وهي تشد -في العادة -الرباط بين ذهن السامع وقلبه من جهة والأفكار المطروحة من قِبل الخطيب من جهةٍ أخرى.(١٢)

لذا فالخطابة فن الإقناع عن طريق استمالة عقل وعاطفة السامع باستعمال أدوات يمتلكها الخطيب لتحقيق الغاية المرجوة.

وفن الخطابة نمط من أنماط النثر الفني الذي عرفه الأدب العربي عبر عصوره المختلفة قطع الشوط الأكبر والأوسع في تطويرها حتى بلغ من الازدهار ما بلغ في العصر الأموي.

وكانت الخطابة وما زالت السلاح الأقوى المتبارز بها في الميادين الحياتية المختلفة، وقد اتخذها الأنبياء والرُّسل عوناً لهم في نشر تعاليمهم وأديانهم بوصفها الوسيلة الأقوى للتأثير والإقناع عن طريق استمالة أفكار وعاطفة السامع واستطاعوا عن طريقها زلزلة عروش الطغاة.

والخطابة تنمو بنمو الحياة الاجتماعية وترتقي بذلك النمو لذا ازدهرت في بلادِ اليونان عندما اتخذها الخطيب اليوناني وسيلة من وسائل الوصول إلى السلطة عن طريق الممارسة الواقعية العملية.

ويُعد أرسطو أول من أرسى قواعدها وأصولها، ومن ثَمَّ قسمها على ثلاثةِ أقسام: المشورية، والمشاجرية والبرهانية أما الخطب الحفلية فقد أطلقوا عليها اسم (الخطب الاستدلالية) إذ يقوم الخطيب بالمدح، أو الذم، وهدفهُ الحسن والقبح. (١٣)

ويُعرفها (أرسطو) بأنها ((القدرة على الكشف نظرياً في كل حالة من الحالات، عن وسائل الإقناع الخاصة بتلك الحالة)) (١٤)، فهي كالمنطق تُستعمل للبرهنة على نقيضين، ولكن بوسائلها الفنية نفسها التي يمكن التمييز عن طريقها بما هو حق أو ليس بالحق إلا في ظاهره والسبب في ذلك يعود إلى الأفكار الصحيحة المنطقية على قواعد الخلق (١٥) هي دائماً الأكثر إقناعاً والأقوى من إيراد الحجج.

ومعلومٌ أن الخطابة ((صنو الشعر، وأحد فرعين أساسيين من فروع الأدب العربي القديم وكانا فرسي رهان، يتعاوران السبق ويتبادلان النفوذ)) (١٦) ، لذا توافرت على أنجح الوسائل لتحقيق غايات رجال الدين والثوار، فالتاريخ يشهد أنها سارت منذ أقدم الع صور في ركاب الثورات والنهضات العربية بوصفها سلاحاً ماضياً في الدعوات والأحداث الكُبرى. (١٧)

و إزدهار الخطابة يعود إلى وجود مؤهلات أساسية لهذا الازدهار عند العرب، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية في التعبير عن الرأي فضلا عن المنازعات والخصومات فيما بينهم وتدعوهم للحرب مرة وللسلم أخرى ، وكانت مجالسهم في مضارب خيامهم واسواقهم وساحات الامراء ميادين لإظهار البراعة في الإلقاء والنطق السليم والبلاغة العالية ... كل هذا وغيره نابع من فطرة العربي والقدرة على القول السليم.

ويُعزز الكلام السابق مقولة الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين): ((وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وإرتجال وكأَنه إلهام وليست هُناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكرة ولا استعانة وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام ... عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب ... وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وله أقهر)) . (١٨)

والخطابة مقدسة بل تُعد أقدس فن أدبي عرفه العرب بوصفها الوسيلة الأولى لتبليغ رسالة الأنبياء السماوية وهي الذريعة التي تمكن الأنبياء عن طريقها من استمالة قلوب السامعين وإقناعهم، لذا فالوظيفة الإقناعية

للخطيب النابعة من الإفهام تتصدر وظائفها لأخرى بوصفها وظيفة أساسية للخطيب بكل أصنافها وأشكالها، وأصبحت الوسيلة الأولى لإقناع المتلقي بوصفها تتبع المُرسِل والمُرسَل إليه.

وللخطيب صفاتٌ عامة يجب التحلي بها كي تكون له القدرة على حركتي التأثر والتأثير بالسامع. نذكر بعضاً منها: -

١-القدرة على مخاطبة العقل والعاطفة، ولا يمكن إطلاق صفة الخطيب الماهر إلا لمِن له هذه القدرة.

٢-المقدرة -في كل أمر -على رواية الكلام بدربة عالية.

٣-اختيار الألفاظ المناسبة لموضوع الخطبة.

٤ -الفطنة ، فإذا فقدها تعرض كلامه للخطأ.

٥-صاحب فضيلة عالية.

٦-التلطف للسامعين.

٧-معرفة قدر المعنى ويوازن بينه وبين قدر المستمع في كل حالاته.

٨-مراعاة المقام في التطول والإيجاز.

٩-استعمال ألفاظ خاصة لمخاطبة الخاصة، والفاظ عامة لمخاطب العامة ،وغير جائز العكس .

١٠- صاحب ثقافة والسعة (دينية ، فكرية، عقائدية اجتماعية ...) وكان الجاحظ أكثر القدماء حديثاً عن الخطيب ، صفاته و عيوبه ودقته في الطرح وجهارة صوته ... بوصفهِ الأفضل مقارنةً بالشاعر خاصةً بعد انتشار التكسب بالشعر بين العرب ، فذكر في بيانه وتبيينه مقولة لابي عمرو بن العلاء ، قال فيها : ((كان الشاعر في الجاهلية تُقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيَّد عليهم مأثرهم ويفخِّم شأنهم ويهوّل على عدوهم و من غزاهم ، ويطيب من فرسانهم ، ويخوّف من كثر عدوهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرَّعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر))(١٩) .

وتُستعمل الخطب في إصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب وحّمالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد، وفي عقد الاملاك وفي دعاء الباري عزَّ وجل في أمور دينهم ودنياهم والإشارة في المناقب ... فضلاً عن كل أمر يراد نشره بين الناس.(٢٠).

لذا فكل ما ورد عمل على ازدهار الخطابة في العصر الأموي بتناولها أغراضاً مختلفة،استعملوها في مناظراتهم ومفاخراتهم بالأحسابِ،والأنسابِ والمآثر والمناقب ... فضلاً عن كل امر يُراد نشره بين الناس ... ومنها خطب المحافل ، فما المقصد منها ؟

خطب المحافل هي تلك (الخُطب التي تُلقى في المحافل لتكريم أو تأبين أو في تهنئة بنعمةٍ خاصة أو عامة أو في علاج مشكلة اجتماعية)) (٢١)، فضلاً عن تناولها لتلك الأغراض المتصلة الاتصال المباشر بالحياة الاجتماعية فُتلقى في المواسم الكبيرة والمحافل العظيمة وفي مجالس الملوك والأمراء، وفي الأندية العامة والخاصة... وكل ما يتعلق بالمجتمع.

وهذا النوع من الخطب ينشط عند العرب بسبب ارتباطه بواقعهم المؤدي إلى مصيرهم وعلى الرغم من ذلك لم نجد لها وقفات طويلة في كتب القدماء إلا القليل منهم اشادوا إليها عند الحديث عن الخطب في عصور الأدب المختلفة باختلاف موضوعاتها .

المبحث الثاني :

بواعث الإزدهار

أصبحت الخطابة في العصرِ الأموي بأنواعها المختلفة (سياسية.حماسية ، حفلية ...) لها أهمية واضحة للحاجة المُلحة إليها واهتمام الحُكام بها بوصفها وسيلة مميزة لأفكارهم وآرائهم، فازدهرت ازدهارا واسعاً لم يسبقه مثيل حتى عُدَّ عند الباحثين العصر الذهبي للخطابة.

وكان لخطب المحافل الحظ الأوفر من ذلك الإزدهار مع تعاظم شأنها وامتيازها عن ضروب الخطابة الأخرى بجمال التعبير وحسن التنسيق مع جودة السبك والنضج كل ذلك نابع من بواعثٍ عدة نقف على أهمها ..

1- إقبال المسلمين على حفظ القرآن الكريم و دراسته :

يُعد القرآن الكريم الباعث المهم لإزدهار خطب المحافل في العصر الأموي ، فقد حظى بعناية المسلمين واهتموا بحفظه و دراسته وتدبره ومن ثم تفسيره على يد نُخبه من العلماء المفسرين أنداك وهذا الاهتمام بالكتاب المبارك جعل الخطباء يلجأون إلى الاستشهاد بآياته المباركات في خطبهم بمحافلهم المختلفة وأصبحت الخطابة بشكل عام والحفلية بشكل خاص يصغر شأنها إذا خلت من آيات قرآنية ولا يكون لها مقبولية لدى السامع لتأثر العرب بالقرآن الكريم وبلاغته وقوة تعبيره وبالمقابل حفظوه وفهموه لذا كل كلام يخلو من القرآن الكريم يُعد مذموماً عندهم فحرص الخطباء على الاستشهاد بآياتٍ مباركات، فضلاً عن كون الخطباء أنفسهم من المسلمين الحافظين للقرآن الكريم والمتأثرين به والأعم الأغلب من كلامهم كان مقتبساً منه .

قال الهيثم بن عدي : ((كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجميع آي من القرآن الكريم فإن ذلك ممّا يورث الكلام إليها والوقار والدقة وسلس الموقع))(٢٢). وكان أهل البيت)خير مثال على التأثر القرآني في خطبهم التي يعلوها قرآناً ناطقاً يحثون الناس ـ عن طريقهاـ على (عليهم السلام(الإقبال حفظ آيات الكتاب المبارك والتكلم بما فيه .

عرض فيها حقيقة توحيد الخالق تعالى -فقال :- (عليه السلام) ففي خطبة للإمام الحسين (

((أيُّها النَّاس ، اتقوا هؤلاء المارقة(٢٣) الذين يُشبِّهون الله بأنفسهم ، يضاهون قول الذين كفروا من أهل الكتاب ، بل هو الله ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .استخلص الوحدانية والجَبَروت ، وأمضى المشيئة ، والإرادة ، والقدرة ، والعلم بما هو كائن ....))(٢٤)

)وظف في خطبته المذكورة آيات مباركات جعلها شاهداً على إثبات و حدانية الله سبحانه بوصفه (عليه السلام فالإمام الخالق العليم القدير العزيز الحكيم .... الذي قدر كل شيء في هذا الكون تقديراً .

٢- الأحداث السياسية : شهد العصر الأموي إضطراباً سياسياً نتيجة لإحتدام الصراع بين الفرق والطوائف المتنازعة على الخلافة وهذا النزاع كان السبب المباشر في أحداثٍ أذ كانت جذورخطب المحافل المسببة في ظهور ضرب منها هو ما أُطلق عليه اسم خُطب المواسم المتضمنة أغراضاً سياسية.

إلا أن الحُكام الطُغاة في ذلك العصر اسكتوا الأفواه الناطقة إما بالمطاردة أو عن طريق بث الإشاعات بالتحذير منهم لإبعاد مسامع الناس عنهم، كما في خطبةٍ لعتبة بن ابي سفيان الذي خطب بالناس في موسمِ الحج إذ قال فيها بعد أن حمد الله سبحانه وأثنى عليه : ((إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضاعف فيه للمحسنين الأجر

وللمسيئين الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له، فلا تمدّوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تتقطع من دوننا ورب متمنٍ حتفه في أمنيته ، أقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولو ، فإن لو قد اتعبت من قبلكم ولم نرُح من بعدكم فأسأل الله أن يُعين كُلا على كُل)) (٢٥).

فنرى الخطيب استغل تجمع الناس في موسم الحج فخطب بهم خطبة غايتها إسكات الأفواه الناطقة ضدهم وسياستهم، بثَّ عن طريق كلماته سياسة التحذير من القمع أو المطاردة ..... وغيرها من أساليبهم القذرة باستعمال ذلك المكان المقدس وتلك المناسبة لأغراضم السياسية.

٣-استفحال العصبيات القبلية :-

العصبية القبلية أو العنصرية القبلية أو النزعة القبلية أو النزعة العشائرية ، جميعها تنتمي لمصطلحٍ واحد هو (الموالاة) ، الموالاة بشكلٍ تام للعشيرة أو القبيلة وتنتج عنها المناصرة التامة ظالمة كانت أو مظلومة.

وقد عدَّ بعض الباحثين العصبية القبلية ضمن إطار السلبية وأثرها على الفردِ والمجتمع بوصفها العامل الأساس في توليد فكرة الكراهية وعنصرية الحقد المتولدة عنهما القطيعة التامة - في أغلب الأحيان - بين أبناء القبيلة الواحدة والسبب الأساس للنزاعات العشائرية لذا فمع مجيء الدين الإسلامي (دين الرحمة الإلهية المحمدية) جاء الأمر الإلهي بإنهاء ذلك التعصب الجاهلي المسبب للعداء إلى إخاء يتولد عنه رحمة ومحبة يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا ﴿بين الأفراد، وخير دليل على ذلك قولهِ سبحانه : الحجرات : ١٣ .﴾وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

وقوله(ﷺ): (ليس منا من دعا إلى عصبية) (٢٦) خيرُ دليل على ترك التعصب القبلي وإنهاء جذوره بوصف الدين الحنيف بثَّ روح التسامح والتحابب بين القبائل وإحلال الرابطة الروحية محل النزعة القبلية، وهذا الأمر لم يكن سهلاً في بادئ الأمر بوصف العرب ترتبط ارتباطاً مباشراً بقبيلتها لذا فما يصُيب القبيلة يُصيب الفرد وهذا كان السبب الأهم من أسباب انتشارها وإصرارهم عليها، لذا فالإسلام لم يقض على ذلك التعصب القبلي نهائياً . فضلاً عن أن التاريخ ذكر لنا عودة للتعصب القبلي ووصوله إلى ذروته بعد رحيل الرسول الأكرم محمد(ﷺ)، ودليل ذلك ما حصل بين الأنصار والمهاجرين في أمر الخلافة واصبحوا يعززون موقفهم بالتعصب لجهةٍ دون أخرى . ووصلت العصبية القبلية ذروتها في عصر بني أُمية بسبب الأحداث السياسية، فضلاً عن أن الحكام كانوا هم المسبب المباشر لها ، وبالأخص عصبيتهم على بني هاشم الذي وصل ذروته آنذاك، مثال هذا الأمر عصبية كعب وتغلب على قيس.

فهذه الأحداث أثرت بشكل مباشر على خطب المحافل وأصبحت مدعاة للنزاعات والضغائن ونشوب الخصام بين الأغلب من المسلمين ، وبالمقابل يذكر لنا التاريخ خُطباً كثيرة تدعو إلى إخماد النزاعات الناتجة عن العصبية القبلية ، مثال ذلك ما ذكره القيرواني (ت : ٤٥٦ هـ) شاهداً على تأجج العصبية القبلية ومحاولة الخطباء إخمادها ، قول الأحنف بن قيس الذي حاول جاهداً عن طريق خطبته فك التأزم العصبي بين قبيلتي يا معشر الأزد وربيعة أنتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصِّهر وأكفاؤنا في النسب ((تميم والأزد ، فقال وجيرانُنا في الدار ويُدنا على العدو والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام))(٢٧).

فنلحظ في خطاب الأحنف بن قيس الإخاء والحب ولين الحديث الذي حاول عن طريقه إخماد نار التعصب القبلي الذي. مزَّق وحدة الدولة العربية الإسلامية وسمح للأعداء استغلاله لتحقيق غاياتهم في الانشقاق وكثرة الخلافات المؤدية إلى التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

٤-كثرة المحافل الخطابية والخطباء البلغاء :-

كثُرت في العصر الأموي المحافل الأدبية والمجالس التي تُلقى فيها الخُطب بشكلٍ عام والحفلية بشكلٍ خاص وكان الخطباء يتسابقون في إلقاء خطبهم لإظهار قدرتهم على القول والإلقاء ببلاغةٍ عالية وإبداع تشهد لهم تلك المحافل بذلك ، فضلاً عن وجود أماكن خاصة يتسابق الخطباء عليها لوجود العدد الأكبر من العرب أبناء القبائل المختلفة في تلك الأماكن خاصةً الأسواق المشهورة منها سوق عكاظ المعروف المشهور عند العرب تحديداً في موسم الحج وكذا سوق الكناسة وسوق المربد، فكانت هذه الأسواق عبارة عن محافل أدبية، بلاغية، و بيانية.... فضلاً عن ظهور العدد الكبير من الخطباء المعروفين الذين اشتهروا بالبلاغة والفصاحة والقول الجيد والقدرة على القول والإرتجال، هذا ساعد بشكلٍ كبيرٍ على ازدهار الخطابة وأصبح الباعث المهم لتطورها في ذلك العصر.

فما السبب المباشر وراء هذا الازدهار وتلك الجودة؟ هل الثقافة القبلية أم الاستعداد الفطري؟

بمعنى آخر هل كان للخطباء ثقافة عالية نابعة من الثقافة العربية القبلية أم هو استعداد فطري؟

الجواب يجمع بين الأمرين (القبيلة والفطرة) فهما الجانب المهم والأساس في إزدهار خطب المحافل بجودة قولها وبديهتها ، وقد اختلف النُقاد والكُتاب في ذلك منهم من ذهب إلى الثقافة العامة للقبائل ومنهم من ذهب إلى الإستعداد الفطري الذي وصفوه بأنه المساهم الأول في هذا الإزدهار.

ويذكر الجاحظ ((ان كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليس هناك معاناة ولا مكايدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة وإنما هو أن يُصرف همه إلى الكلام وإلى وجز يوم الخصام)).(٢٨)

وفي المدن والأمصار والأسواق كانت تقام المحافل الخطابية . يقول فيها الخطيب خطبته لأغراضٍ شتى ممَّن يملك الموهبة البيانية، والفصاحة العالية إذ يتفاخرون ويتناظرون في مناسباتٍ عدة كالتهنئة أو التعزية أو صلح أو نكاح ... الخ .

المبحث الثالث :

التقاليد الفنية

لخطب المحافل في العصر الأموي ألوانٌ عدة برسومٍ وتقاليدٍ عامة ومن ثَمَّ رسوم خاصة بكل لون منها ، تذكر أهمها :-

١-استهلال الخُطب بالثناء على الله سبحانه :-

تميزت خطب المحافل في العصر الأموي بالاستهلال بعبارات حمد الباري عز وجل والثناء عليه سبحانه، وهذا ما توارثه الخطباء من نبي الرحمة محمد (ﷺ)، فكان(ﷺ) يحث على بدء الكلام بالثناء والحمد قال أحد العلماء : ((كان(ﷺ) لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله سبحانه) (٢٩) فسنته (ﷺ) كانت افتتاح جميع الخُطب في كل المناسبات بـ (الحمدُ لله) .

معنى هذا أن الخطب التي لا تبدأ بذكر الله سبحانه غير مقبولة في الشريعة الإسلامية ومن ثَمَّ لا تنال استحسان السامع ولا يُصغي إليها في أحيانٍ كثيرة ، وإن أعظم ثناء وأجله لله سبحانه شهادة الوحدانية وصيغتها:- (أن الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعود باللهِ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مُضِلَ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله))(٣٠).

ونرى أن أصول الخطابة قد استقرت عند العرب على ما وردت في خُطب النبي (ﷺ)توارثها الخُطباء وساروا عليها في خطبهم بكل مناسباتهم (خطب السياسة والولاة، خطب الأعياد ، وخطب يوم الجمعة ...) خاصة فيما يتعلق بالحمد لة والثناء والإقتباس من معاني القرآن الكريم والفاظه المباركة.

نذكر مثالاً من خطبه (ﷺ)في المدينة المنورة شاهداً ودليلاً قاطعاً على بدء كلامه بحمد الله سبحانه والثناء عليه : (الحمد لله أحمده واستعينه نعوذ باللهِ من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مُضِلَ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) (٣١).

لذا فإنَّ استهلال الخُطب الحفلية بعبارات التحميد و التمجيد ارث الخطباء من رسول الرحمة(ﷺ) ، قال الجاحظ : ((إن خُطباء السلف الطيب أهل البيان من التابعين بإحسان وما زالوا يسمون الخطبة التي لا تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد، البتراء)) (٣٢)، فعليه كل خطبة لا تبدأ بما تعلمه الخطباء من رسول الله (ﷺ)تسمى (البتراء) ، بوصف النفوس تتشوق لذكر الله سبحانه والثناء عليه لذا كان الحرص على بدءِ الخطبة بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبي والإكثار من الثناء على الباري عزَّ وجل ، وهذا ما جُعِلَ عند العرب نوع من العظمة ، فضلاً عن أن الغاية من الخطابة بشكلٍ عام الفائدة والمنفعة للناسِ أجمع ولكي تزداد فائدتها يضاف لها مَن يُحقق قدسيتها.

وخيرُ مثال لمن سار على نهج الرسول (ﷺ)في افتتاح كلامه بشكلٍ عام وخطبه بشكلٍ خاص ، سيد البُلغاء)، فنجد في خطبه استلهام البيان منه (ﷺ).(عليه السلام)علي بن ابي طالب أمير المؤمنين

كما في خطبةٍ له افتتحها بقوله: ((أحمدهُ شكراً لإنعامه واستعينه على وظائف حقوقه عزيزُ الجُند ، عظيم المجد . وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله، دعا إلى طاعته وقاهراً أعداءه جهاداً على دينه لا يثنيه على ذلك اجتماع على تكذيبه لإطفاء نوره ، فاعتصموا بتقوى الله فإن لها حبلاً وثيقاً ...))(٣٣).

وفي خُطبةٍ أخرى أثنى على اللهِ سبحانه بأربع اعتبارات هي (الأول والآخر والظاهر والباطن) في قوله : (الحمدُ لله الأوَّل فلا شيء قبله والآخر فلا شيْ بعده والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه)) .(٣٤)

))(الحمدُ لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يُحصى (عليه السلام) فضلاً عن عظيم ما ذكر الله سبحانه به، قال نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعد الهمم ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدٌ محدود ، ولا نعتٌ موجود ولا وقتٌ ممدود، ولا أجلٌ محدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.....)) (٣٥).

إذ أصبح هذا الثناء مدار ذكر في المحافل المختلفة وأصبحت الخُطب الحفلية - في الأعم الأغلب. منها - تبدأ بهذا الثناء الخارج للدعاء لطلب السداد والتوفيق في القول والعمل من الباري عزَّ وجل.

ومن الخُطباء الأعلام الذين اشتهروا بين القبائل العربية بخطبهم الحفلية المبدوءة بالثناء على الله سبحانه والتمجيد له متبعين ارثهم من نبي الرحمة محمد(ﷺ) وسيد البلغاء علي أمير المؤمنين (عليه السلام) هو التميمي (الأحنف بن قيس) المعروف بالفصاحة والبلاغة الذي يورد كلامه مورده الصحيح بوصفهِ أبين الناس في كُلِ حالٍ يُريده فضلاً عن أنه يوم ألقى خطبه وحفل وتصنع ... كان أخطب العرب. ومن هذه الخطب قوله : (بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وصلى على نبيه : يا معشر الأزد وربيعة ، أنتم إخواننا في الدين . وشركاؤنا في الصهر ، وأشقاؤنا في النسب وجيرانُنا في الدار ، ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحبُ إلينا من تميم الشام...) (٣٦).

لقد أثر في الخطيب كلام النبي(ﷺ) وعلي بن ابي طالب أمير(عليه السلام) إلى حدٍ حاول جاهداً في خطبه أن ينهج منهجها حتى انه أخذ من كلامهما تركيباً بعينه أو صياغة بعينها وهذا التأثر كان واضحاً عند اغلب خطباء ذلك العصر .

٢-استشهاد الخطباء بآياتٍ من الذكر الحكيم :-

للخطابة أنواعٌ عده وكل نوع له ميزته الخاصة به إلا خطب المحافل إنمازت عن الأنواع الأخرى بالتركيز على الاستشهاد بآياتٍ من الذكر الحكيم ، وقد أشار الكُتاب إلى ذلك من بينهم الجاحظ حين قال : ((وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجُمع آي من القرآن ، فإن ذلك ممّا يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع)) (٣٧).

الواضح من كلام الجاحظ أن الخطباء في محافلهم يرُصعون خطبهم بأيٍ من الذكر الحكيم لتكسبها الهيبة والوقار فضلاً عن التأثير المرجو من الخطبة، شرط وضعها في مكانها المناسب والملائم للخطبة وقد وجدوا في القرآن الكريم مَعين لا ينضب بوصفهِ الحجة البليغة والحكمة الباهرة وهذا ما أورثوه عن رسول الله (ﷺ) لأنهم تعلموا منه إقامة الحجة بالدليل القرآني القاطع للنزاع وبلوغ غرضهم وغايتهم بآية واحدة منه على الأقل فضلاً عن تأثرهم ببلاغة علي أمير المؤمنين والأئمة عليهم جميعاً أفضل وأتم التسليم، ، ومن ثم توارثوه عن آبائهم وعرفوه في محافلهم .

وكان اقتباسهم من القرآن الكريم على وجوه ، إما اقتباس آية كاملة أو جزء من آية أو اقتباس فكرة قرآنية ، إذ يلجأ الخطباء في كثيرٍ من الأحيان إلى إثارة تفكير السامع بتضمين الخطبة بآية قرآنية مباركة بوصف القرآن الكريم حوى الصور المتجددة التي أغنت الفكر الإنساني ووظفت خياله بشكلٍ واسع ،نذكر مثالاً للسيدة)في مسيرته إلى كربلاء، ونهضته (عليها السلام)(زينب بنت علي (عليها السلام)(شريكة الإمام الحسين بن علي المباركة ضد الظلم والطغيان، كانت لها الوقفات المشرفة الداوية آنذاك في مجلس يزيد بخطبةٍ رجت المجلس ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ﴿اللعين وكان كلامها. أغلبه اقتباساً من القرآن الكريم بآياتٍ كاملة، فقد استشهدت بقوله تعالى : :(الروم :١٠).﴾الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ وفي الخطبةِ نفسها استشهدت بقولٍ آخر للباري عزَّ وجل من سورة آل عمران : (ال عمران : ١٧٨).﴾أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

فهذا الاستشهاد من قبل السيدة (عليها السلام) كان تعزيزاً لما ذهبت إليه من عرضٍ لفكرها بإسلوب التوعية وطرح المحاججات الكلامية بإسلوب قرآني بنّاء أدى إلى فوزها الفوز الباهر على أعداء الله سبحانه الذي سجله التاريخ لها وصداه ما زال يتردد إلى اللحظة ، فقد رسم الفكر الإسلامي للمرأة خطأ واضحاً عن طريق الدور الرياسي الذي تحدده الظروف العامة والخاصة المحيطة بها نابع من حاجتها وحاجة المجتمع لها ، لذا فكان للسيدة (عليها السلام) الدور الرئاسي المميز في مجلس يزيد بن معاوية وسط حشد جماهيري كوفي ، وهي العالمة غير المُعلَّمة، وقد ذكر العلامة المجلسي في بحاره قول لحزيم الأسدي عندما سمعها تخطب في الكوفة ، قال فيه : (فلم أر - والله - خَفِرةً أنطق منها ، كأنها تُفرِغ عن لسان أمير المؤمنين)(٣٨).

ومن خطبة أخرى لعبد الله بن الأهتم نذكرها شاهداً على اقتباسهم آيه كاملة من القرآن الكريم قال فيها: ((فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولاً منهم عزيزاً عليهم ما عنوا، حريصاً عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم)) (٣٩).

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴿فنص الخطبة هذا مقتبس من قوله سبحانه: (سورة التوبة: ١٢٨).﴾بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

وفي خطبةٍ من خُطب النكاح نذكر لعمر بن عبد العزيز خطبه قال فيها : ((وقد زوجتكما على كتاب الله الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴿إمساكاً بمعروفٍ أو شركاً باحسان)(٤٠) ، فهو قولٌ مقتبسٌ من قولهِ سبحانه (البقرة :٢٢٩)﴾أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ

وفي خطبة أخرى لخالد بن عبد الله الفسري في موسم الحج قال فيها : ((كتب على عباده حجة من استطاع إليه سبيلا)) (٤١)، هذه الخطبة مقتبسة من قولهِ سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (ال عمران :٩٧).﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

فالاقتباس كان بجزءٍ من القول المبارك الشاهد على أمر الله سبحانه بإداء فريضة الحج لكل من يستطع له سبيلا.

وقال الحسن البصري في إحدى خطبه : ((فالويل لهم يوم، التغابن))(٤٢)فقد دلَّ على هذا المعنى قولهِ تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ (التغابن :٩).

وفي مجال استشهاد الخُطباء بفكرة من آيات القرآن الكريم قول عمر بن عبد العزيز في تأبين ولده : ((الحمدُ لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على خلقة ثم سوّى فيما بينهم))(٤٣) ، ففكرة هذه الخطبة. مقتبسة من قوله سبحانه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (ال عمران ١٨٥).

فنلحظ ممّا سبق أن الخطباء تأثروا تأثراً واضحاً ومباشر بالقرآن الكريم هذا التأثر انعكس على ثقافتهم العامة وجعلوا كلامهم فيه اقتباس وتضمين بآيةٍ كاملةٍ أو جزء من آية أو فكرة من الكتاب المبارك، وهذا ما كان أحكمه وقعاً في خطبهم وأكثره تأثيراً بوصف القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة التي أعجزت البشرية عن مجاراته في البلاغة والفصاحة لذا كان من الواجب على العرب المسلمين احترامه وتعظيمه بالقول التابع له العمل.

٣- مراعاة مقتضى حال خطب المحافل

في هذا التقليد الفني نذكر سمات الإيجاز والإطناب ، فالخطابة إما أن تكون طويلة مفصلة أو قصيرة موجزة ، فالإيجاز جمع معنىً كثير في لفظٍ قليل مع آياته الأمر وإيضاحه، وهو إما قصر أو حذف، فالأول تقليل الألفاظ وإكثار المعاني ، كقوله سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٩)، والثاني ايجاز الحذف كقوله سبحانه - المشهور عند أهل البلاغة(واسأل القرية)(يوسف: ٨٢) والمراد منه اسأل أهل القرية.

وبالمقابل فإنَّ الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة مرجوة من الكلام، كالإيضاح والتكرار وغيرهما، كقولهِ تعالى ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح : ٦ .

فهذا التكرار جاء لغرضٍ بلاغي، والهدف منه تأكيد المعنى وإبرازه للوضوح والبيان.

قال ابو هلال العسكري في صناعته: ((الإيجاز والإطناب تحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع ، فالإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في مكانه، فمن أزال التدبر في ذلك عن جهته واستعمل الإطناب في موضعِ الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ)) (٤٤)لذا ((متى ماكان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا)) (٤٥).

وتتسم خطب المحافل عند العرب بالإيجاز مرة والإطناب أخرى ، وفي رأي لابن المقفع، قال فيه : (فأما خُطب ما بين السَّماطين ، وفي إصلاح ذات البين ، فالإكثار فيه في غير خطل والإطالة من غير إملال). (٤٦)

وأكد أبو هلال العسكري هذا الرأي بقولهِ : ((فكانوا إذا خطبوا في الصلح بين العشائر طالوا وإذا انشدوا بين السماطين اطنبوا ، والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز)(٤٧).

وهكذا فإن كل إطناب إذا كان ضرورياً في موضعه كان الإيجاز تقصيراً ، واذا كان الإيجاز كافياً في موطنه عُدَّ الاطناب هذا واذا أطال الخطيب في الكلام وفرج عن ذلك الموضع المرجو من الخطبة المبني عليه غرضه الأساس فقد عرَّض السامع للسأم ، فضلاً عن قبيح الاستماع وقلة التأثير.

وبوصف خطب المحافل خاصة في أغلب الأحيان بذوي الإفهام والخاصة من الناس لذا فلا حاجة لهم بالإطالة ويفهمون المقصد بيسر القول عن كثرةِ المفصل، لذا تُعد هذه السمة السبب الأساس في قصر خطب المحافل وامتيازها بسمة الإيجاز.

)في ردِّه على معاوية (عليه السلام وقد نظفر بخطب قصيرة موجزة منها، على سبيل المثال - خطبة الإمام حسن لمّا نال منه ومن أبيه ، ذكرها صاحب جمهرة خطب العرب بقوله:(خطب معاوية بالكوفة حين دخلها. والحسن)فنال منه ، ثم نال من الحسين ، فقام الحسين عليه السلام والحسين (عليهما السلام) جالسان تحت المنبر فذكر علياً (ليرد عليه فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : ((أيها الذاكر علياً : أنا الحسن وابي علي .وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة وجدتك) عليه السلام قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً وآلمنا حسباً وشرَّنا قديماً و حديثاً، و أقدمنا كفراً ونفاقاً)(٤٨)فنرى في كلامه (

)مع الإيجاز البليغ الذي أوصل عن (عليه السلام)البلاغة العالية والفصاحة البليغة والإسلوب القرآني النبوي في كلماته).(عليه السلام)طريقه فكرته المباركة بأدق الكلمات ، فلا عجب هذا هو اسلوب أهل بيت النبوة

وخطبة أُخرى لعمر بن عبد العزيز في تأبين ولده إذ قال فيها : (رحمك الله يابنُي ، فقد كنت برَّاً بأبيك والله ما زلت مُذ وهبك الله لي بك مسروراً"، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا بك، ولا أرجى لحظي من الله فيك، منذ وضعتك في الموضع الذي صبرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين) (٤٩).

فخطبة التأبين هذه فيها إيجاز لحزنه على ابنة وليس فيها ذلك الإسلوب الرسمي للغاية فقد كتبها بعفوية بالغة مع تنوع في ضمائر المخاطب لصاحب التأبين المصحوب بالدعاء له بالرحمةِ والمغفرة.

و من خطباء بني هاشم (عبد الله بن الحسن) وهو القائل لابنه ابراهيم أو محمد : (يا بُنيَّ اني مؤيد إليك حق الله في تاديبك فأدِّ إليَّ حق الله في حسن الاستماع))(٥٠) ، فيطلب منه أن يكون صاحب خلق عظيم في حسن الإستماع .

وإذا كان الإيجاز سمة لازمت الخُطب الحفلية، نجد من جانبٍ : آخر أن الإطناب في بعضها لضرورة أوجبت ذلك ، فيلجأ الخطيب إلى تكرار كلمات وتراكيب متشابهة لإيضاح المعنى وتقوية الأثر الكلامي مع سرعة فهم الفكرة المطروحة .

ومن أشهر الخطب الحفلية التي تميزت بالإطالة والتي وصلت إلينا تامة خطبة السيدة زينب بنت أمير المؤمنين علي بن ابي طالب . (عليهما السلام) في مجلس يزيد بن معاوية (٥١) والتي زحزحت (عليها السلام)بتلك الخطبة الحكم الأموي وسقت الحُكام الأمويين السم القاتل عبر كلماتها البليغة، وسعت إلى إعادة المسلمين الى كامل وعيهم بأن ما فعلوه بآل محمد (عليهم السلام) في يوم عاشوراء جريمة يلحقهم عارها مدى الزمن.

وخطبة أخرى ذكرها صاحب العقد الفريد لواصل بن عطاء في مجلس (عبد الله بن عمر بن عبد العزيز) (٥٢)، وغيرها من الخطب الأخرى التي لا مجال لذكرها جميعها .

٤-تجويد الخطب وتنقيحها :-

عند تأمل الخصائص الموروثة لخطب المحافل نجدها بلغت القيمة الفنية العالية في مستواها العام ، هذا ناتج عن الإعداد لها والتجويد والتحبير فيها، فقد أمتاز خطباء ذلك العصر بالتنقيح والإعداد والتجويد لكي تخرج بتلك الخطب لمتلقيها تامة خالية من عيبٍ ما أو ما يُقلل من قيمتها البلاغية والفنية، قال الجاحظ في هذا المورد : ((كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب . اقتداراً عليه، وثقة بحسن عادة الله فيه، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور، ميثوه في صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوَّمه الثُقاف وأدخل الكبر ، وقام على الخلاص ، ابرزه مُحكماً منقحاً ومصفى من الأدناس مُهذبا)) (٥٣).

فكان الخطباء يخافون من خيانة ذاكرتهم ويخونهم القول أثناء الإلقاء لذا لجأوا إلى إعداد الخُطب وتحبيرها وتجويدها وتهذيبها لتجنب الإحراج أثناء الإلقاء في محفلٍ من الناس .. وقد اشتهر كثير منهم بالتجويد والتنقيح وكانوا يفتخرون بذلك.

وقد ذكر صاحب العقد الفريد حواراً لسليمان بن عبد الملك مع اعرابي أعجبه كلامه : ((لعمر أبيك لئن قلت بديهة لقد أحسنت و ان كانت محبرة لقد أجدت ، قال : بل محبرة مزورة يا أمير المؤمنين ، قال: ياغُلام اعطه فو الله لصدقة أعجب إلينا من صنعته) (٥٤).

والخُطيب في المحافل بحاجة إلى تحبير خطبه وإعدادها وتجويدها بوصفه الملُقى عليه الأنظار، وهو أمام حشد من الناس ولربما تخونه الذاكرة ولا تسعفه الكلمات لذا يقوم بإعداد كامل للخطبة وتحبيرها وتجويدها حتى لا يكون مدعاة للنقد و السخرية من قبل السامع هذا السبب الأول ، والسبب الثاني أكثر أهمية وهو رغبة الخطباء في الحصول على السبق الأدبي ونيل الحفوة في مقام كلامهم في إصلاح ذات البين أو فخر أو تأبين أو نكاح ... وغيرها من المناسبات الحفلية، لذا يلجأ إلى الإعداد و العناية الفائقة بخطبته (اسلوبها ، وتركيبها ، ومفرداتها ...) للحصول على رغبته ومُناه في التأثير الذي يتبعه الأثر.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى ما يأتي: -

١-استشهاد الخطباء بالآيات القرآنية المباركة أكثر من استشهادهم بالشعر.

٢-إنماز عصر بني أمية بكثرة الخطباء المصاقع المالكين أعنَّة الفصاحة وأزمَّة البيان لذا ازدهرت خطبهم وارتفعت منازلهم ، فضلاً عن ظهور عدد لا بأس به من الخطباء الحفليين المعروفين بحضور البديهة، وكان للأحداث السياسية الدور المباشر في ذلك .

٣-لم يكن لخطباء العصر الأموي نُظراء في أصالة الرأي والكمال وكانوا فوق الخطباء بل وفوق أصحاب الأخبار، لذا كان كلامهم لا يعرف قدره إلا الراسخون في الفصاحة.

٤- كانوا يقولون أحسن الكلام ما لم يكن بالبدوي المعروف ولا بالقروي المخدع ولكن ما شرفت مبانيه وظرفت معانيه لذا كلامهم حسن بل ازداد حسناً على مر السنين.

٥- كان للصراع السياسي وتطاحن الأحزاب فيما بينها عاملاً مهماً في شهرة بعض النساء بالخطابة وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من خطبهن إلا أن لها قيمة بلاغية عالية .

٦ـ من أشهر خطيبات العصر الأموي ذكرنا بعضاً منهن على سبيل المثال لا الحصر وقد تصدرت عليهن السيدة الحوراء زينب (عليها السلام) في خطبتها المشهورة في مجلس يزيد ، ومنهن ذكرنا الزرقاء بنت عدي ،وليلى الأخيلية.

الهوامش:

١-ينظر: دليل الناقد الأدبي، د ميجان الرويلي، وسعد البازعي : ١٥٥

٢-جمهرة اللغة، ابن دُريد (ت: ١٧٥ هـ)، تحق : رمزي منير بعلبكي . مادة (خطب).

٣-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: ٥٣١ هـ)، تحق: محمد شاكر: ١/ ٣١٧ .

٤-ينظر كل من: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن السيوطي، تحق: فؤاد علي منصور: ١ / ٢٦٥ ، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ،أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ) ، علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل إبراهيم : ٠١٦

٥-الكُليات -ابو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحق: د. عدنان درويش، محمد المصري: ٢ / ٢٨٥.

٦-المصدر نفسه ٢٨٥/٢

٧-ينظر: الكشف والبيان في تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧ هـ)، تحق: ابو محمد بن عاشور: ١٨٩/٨

٨ينظر: مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر الرازي، علق عليه: د. يحي مُراد :١١٥

٩-ينظر: معجم مصطلحات النقد العربي القديم،د. أحمد مطلوب : ٢١٩

١٠-كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني (ت: ٨٢٦هـ) : ٧٢ .

١١-اساس البلاغة ، ابو القاسم الزمخشري :(ت ٥٢٨ هـ) ، تحق: محمد باسل عيون السود : ٢٥٥/١

١٢-ينظر: المعجم الأدبي، حيدر عبد النور: ١٠٣

١٣-ينظر: الخطابة، أرسطو: ٢٧.

١٤-المصدر نفسه : ٢٧

١٥ ينظر: فن الخطابة، د. أحمد محمد الحوفي: ١٩-٢١

١٦ الخطابة في صدر الإسلام، محمد طاهر درويش (المقدمة).

١٧ ينظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين، صلاح الدين الهادي: ١٦٥

١٨-البيان والتبيين : ٣ / ٢٨

١٩-المصدر نفسه ١٠ / ٢٤١

٢٠- البرهان في وجوه البيان ، ابو الحسن الكاتب ، تحق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي : ١٩١.

٢١-فن الخطابة: ٨٩، وينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، د. إحسان النص: ٢٢٢.

٢٢-البيان والتبيين: ٩٥/١.

٢٣-المارق : الخارج عن الدين.

٢٤-تحف العقول،ابن شعبة الحرّاني : ١٧٥.

٢٥-العقد الفريد، أحمد بن عبد ربة الأندلسي (ت : ٣٢٨ هـ)، شرحه وصححه : احمد آمين و آخرون : ٤ / ١٣٩ .

٢٦-صحيح البخاري ، ابو عبد الله بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦هـ) : ٢/١٨٤.

٢٧-زهرة الآداب وثمرة الألباب، ابو اسحاق القيرواني (ت: ٤٥٣ هـ)تحق : علي محمد البجاوي :٦٤٤/٢.

٢٨- البيان والتبيين :٣ / ٨٥.

٢٩-زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، ضبطه: شيب الأرنووط ، عبد القادر الارنووط : ٦١ .

٣٠-وردت صيغة الحمد والثناء هذه عند أهل البيت (عليهم السلام) والصحابة والتابعين والخُطباء قديماً وحديثاً وهي صيغة توارثوها عن نبي الرحمة محمد(ﷺ) .

٣١-عيون الأخبار، عبد الله بن قُتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦ هـ)، تحق: د. يوسف علي طويل :٢٢١/٢.

٣٢-البيان والتبين: ٦/٢.

٣٣-شرح نهج البلاغة، كمال الدين ابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ) : ٢٣٦/٤.

٣٤-المصدر نفسه: ٥٣٠/٢.

٣٥-شرح نهج البلاغة ١ / ٢٠٣ .

٣٦-البيان والتبيين:٨٣/٢.

٣٧-المصدر نفسه: ١/ ١١٨.

٣٨-بحار الأنوار:١٦٢/٤٥.

٣٩-العقد الفريد: ٤/ ٩٣.

٤٠-عيون الأخبار: ٧٢/٤.

٤١-تاريخ الطبري: ٦/ ٢٦٤.

٤٢-جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت: ٤٨٤/٢.

٤٣-كتاب التعازي: ٢٠.

٤٤ -الصناعتين (الكتابة والشعر) ، ابو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ) تحق: علي محمد البجاوي، ابو الفضل إبراهيم: ١٩٦.

٤٥-المصدر نفسه: ١٩٦.

٤٦-البيان والتبيين: ١١٦/١.

٤٧-الصناعتين (الكتابة والشعر) :٢٠٢ .

٤٨-جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: ٢ / ١٤ -١٥ .

٤٩-المصدر نفسه ٢١٧/٢.

٥٠-البيان والتبيين : ٢٣٢/١

٥١-ينظر : العقد الفريد : ٩٢/٤.

٥٢- لن يسع البحث لذكر نص خطبتها (عليها السلام) لذا بوسع القاريء الكريم الإطلاع عليها في المصادر الأدبية والدينية القديمة والحديثة.

٥٣- البيان والتبيين :٨١٢/١

٥٤-العقد الفريد :٤٧/٣.

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

١- الأدب في عصر النبوة والراشدين، صلاح الدين هادي ، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٧٠م.

٢-أساس البلاغة ، ابو القاسم الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق : محمد باسل عيون السود، د. ط. د. ت .

٣- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي، تصحيح : محمد باقر حمودي . منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ١٣٦٥هـ

٤- البرهان في وجوه البيان ، ابو الحسين بن ابراهيم الكاتب ، تحقيق. د احمد مطلوب، د. خديجة الحديثي ،د. ط بغداد، ١٩٦٧م.

٥- بلاغات النساء، أحمد بن ابي طاهر طيفور، اعتنى به؛ بركات يوسف هبود ، د.ط، المكتبة المصرية ، بيروت، ٢٠٠٥م

٦-البيان والتبين ، ابو عثمان عمر و بن بحر الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، مكتبة ابن سيناء القاهرة، مصر ٢٠١٠م

٧-تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) اعتنى به : ابو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، السعودية، د. ط.،د.ت.

٨- تحف العقول عن آل الرسول ، ابن شعية الحرّاني ، ط١، بيروت، ١٩٧٤ م.

٩-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت ٥٣١هـ) - تحقيق : احمد محمد شاكر، ط١، عظم مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

١٠_ جمهرة خطب العرب عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكي صفوت ، د. ط، المكتبة العلمية، بيروت ، ١٩٣٤ م.

١١-جمهرة اللغة، ابو بكر محمد بن دريد (ت٣٢١هـ)، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، ط١، دار العلم للملايين ١٩٨٧٠م.

١٢- الخطابة الذهبية في عصرها الذهبي ،د. إحسان النص،د. ط، دارالمعارف القاهرة، ١٩٦٣م

١٣- الخطابة في صدر الإسلام ، د. محمود ظاهر درويش، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ م.

١٤- دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي . د. سعد البازعي، ط٥، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٧م

١٥ - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزي (ت : ٧٥١ هـ) ضبط نصه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع ، بيروت، ٢٠٠٩م.

١٦- زهر الآداب وثمر الألباب - ابو اسحاق القيرواني (ت : ٤٥٣هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي، ط١، مطبعة عيسى الحلبي وشركاؤه، ١٩٥٣ م.

١٧-شرح نهج البلاغة ، كمال الدين ابن ميثم البحراني : (ت ٦٧٩ هـ)، ط١، انوار الهدى ، قم ، إيران ١٤٢٧ هـ .

١٨- صحيح البخاري ، ابو عبد الله بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) . ط١، مطبعة بولاق ، مصر ١٩١٤م.

١٩- العقد الفريد، أحمد بن عبد ربة الأندلسي (ت : ٣٢٨ هـ)، شرح وصححه : أحمد أمين وآخرون ، ط٢،، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٢م

٢٠- عيون الأخبار، عبد الله بن قتيبة الدينوري (ت : ٢٧٦هـ) ،، تحقيق : د. يوسف علي طويل ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٦٢م.

٢١- فن الخطابة ، د. احمد محمد الحوفي ، ط٤ ، مطبعة دار النهضة، الفجالة، القاهرة - ١٩٨٦.

٢٢-كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، أبو هلال العسكري (ت : ٣٩٥هـ) - تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل بإبراهيم. ط٢ ، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، الكويت : ١٩٧١م.

٢٣-كتاب التعازي ، ابو الحسن علي بن محمد الميداني (ت٢٢٨هـ) ، تحقيق د. إبتسام مرهون الصفار، مطبعة النعمان، النجف، عراق . ١٩٧١م.

٢٤- كتاب التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت : ٨٢٦هـ) ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ٢٠٠٥ م.

٢٥-الكشف والبيان في تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت : ٤٢٧هـ)، تحقيق : ابو محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق الاستاذ خضير الساعدي ، ط١ ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٦-الكُليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ابو البقاء بن موسى الحسيني الكوفي (ت : ١٠٩٤هـ) ، أعده للطبع ووضع فهارسه: د. عدنان درويش، ومحمد المصري د. ط، مؤسسة الرسالة ، د.ت .

٢٧-كتاب الخطابة ، ارسطو طاليس، ترجمه وقدم له : د. إبراهيم سلامة، ط٢ ، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٥٣ م.

٢٨- مختار الصحاح : العلامة محمد بن ابي بكر الرازي ، قدم له وعلق عليه، د يحيى مراد، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة ، ٢٠٠٧ م .

٢٩-المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي - تحقيق : فؤاد علي منصور ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت - ١٩٩٨ -

٣٠- المعجم الأدبي ، حيدر عبد النور ، ط١، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

٣١-معجم مصطلحات النقد العربي القديم ، و أحمد مطلوب، ط١، مكتب لبنان ناشرون ، بيروت ٢٠٠١ م.